هوامش على ومضة "تحرُّر" لجمعة الفاخري

أ. د. بهاء الدين محمد مزيد

جامعة سوهاج، مصر

تحرُّر

اِسْتَلْقَى الظَّلامُ عَلَى صَدْرِ الْمَدِينَةِ.. احْتَمَلَتْهُ قَلِيلاً ثُمَّ اخْتَنَقَتْ بِهِ.. سَحَبَتْ هَوَاءَ الْفَجْرِ إِلَى رِئَتَيْهَا.. نَفَثَتْهُ طَارِدَةً سَوَادًا غَاشِمًا...[1]

"أشملُ صراعٍ في الوجود هو الصراعُ بين الموتِ والحياة". هكذا كتب الراحل نجيب محفوظ في شذرة بليغة محكمة من شذرات (أصداء السيرة الذاتيّة) – وفيها سوابق مهمّة على طريق القصّة القصيرة جدا. يتّخذ الصراع ما لا حصر له من أشكال وصور، بين الرغبة والرهبة، بين اليأس والأمل، بين الخوف والرجاء، بين الحبّ والكراهية، بين النّور والظلام. يتجسّد هذا الصراع في ومضة جمعة الفاخري من خلال المجاز الذي تصبح فيه المدينة مؤنّثة عاقلة، والظلام مذكّرا غاشما لا يُحتمل، وهواء الفجر خلاصًا من سواده الخانق وقد نسبت الإرادة إلى الجمادات وهي من صفات من يعقل مجازًا بطريق المشابهة.

في الومضة حركات أربع مائزة: الأولى حيث يستلقي الظلام على صدر المدينة، وليس لها هنا إرادة أو قوّة على الفعل أو المقاومة، فالظلام

[1] نُشرت هذه الومضة في مجموعة (عناق ظلال مراوغة" لجمعة الفاخري. الطبعة الأولى (2006). الطبعة الثانية. الإسكندرية: الدار العالمية للنشر والتوزيع، 2014. ص 88.

هو الفاعل في النحو وفي الحقيقة، وهي مجرورة في شبه جملة، والثانية حيث "تحتمل" فترة ثم "تختنق"، والاحتمال فعل سالب، والاختناق أول الموت، وفي الاحتمال توتّر بين المجاهدة والمطاوعة، والثالثة حيث تسحب هواء الفجر إلى رئتيها، في حركة تقاوم الاختناق والموت، والرابعة حيث تستطيع طرد الظلام الغاشم من صدرها، وقد حلّ مكانه هواء الفجر النقيّ.

نستطيع إذًا أن نتصوّر رجلًا "يستلقي" على صدر امرأة من غير حول منها ولا قوّة "فتحتمله" قليلا ثم "تختنق" فتطلب الخلاص والتحرّر من تحت سطوته الغاشمة فيكون لها ما طلبت. ما الذي يبرّر "عقلنة" الجمادات – أو "تجميد" ذوي العقول وذواته - في هذه الومضة؟ لماذا يصبح الظلام رجلًا أسود غاشما لا يبالي بمن يستلقي على صدرها؟ والمدينة أنثى تحتمل ثم تختنق ثم تفلت من قبضة الرجل؟ لأنّ البشر هم من يمنحون الجمادات دلالاتها ومعانيها، وهل المدينة إلا مجموع ساكنيها؟

المجاز إذًا يسير في اتجاهين في ومضة (تحرّر): (1) المدينة أنثى، والظلام رجل ثقيل جاثم (تشخيص) (2) الأنثى مدينة، والرجل ظلام دامس غاشم (تشيؤ). في اتّجاه التشخيص يقترب المتلقّي من معاناة المدينة تحت وطأة الليل الغاشم، ويتعاطف مع محاولاتها التحرّر والهروب إلى الفجر. لا يكون التشخيص مع العرض، ولكن مع الجوهر، فالمراد هنا

ليس حالة منفردة، بل معاناة شاملة خانقة. في اتّجاه التشيؤ، يسمح المجاز للكاتب أن يبتعد قليلا نحو التجريد، وأن يفلت من غواية الكتابة الحسيّة وأن يؤكّد على سطوة الظلام الخانقة على الجميع.

تنغلق الومضة على نهاية مبهجة على كلّ حال، فقد أفلتت المدينة/الأنثى من تحت الرجل/الظلام وتنفّست هواء الفجر النقيّ الجديد بعد أن استردّت قدرتها على الفعل "سحبت هواء الفجر" ثم "نفثته" طاردة ذلك السواد الغاشم.